

المحاضرة السادسة:

ابستمولوجيا علم النفس وتجاوز العوائق :

من بين الأسئلة الكبرى التي ربطت الابستمولوجيا بعلم النفس سواء حينما كان خطابها يعتبر جزء من خطاب الفلسفة أو منذ قيامه كـ مجال معرفي وعلمي مستقل له خطابه النوعي والمميز، السؤال المتعلق بالتفسير " " Explication إن علم النفس مثل باقي العلوم له أكثر من غاية ومهمة يسعى إلى القيام بها وإلى تحقيقها .

طرحت مسألة الموضوعية والذاتية باعتبارها قضية استدعت مساءلات ومطارحات عدة بالنسبة للإطار الإبستمولوجي لعلم النفس، خاصة فيما يتعلق بالتفسير ، وهذه القضية تتم إثارها بتبرير أن موضوع العلم هو الإنسان والمشتغل بهذا العلم هو أيضا الإنسان ، ومن هنا تبرز إشكالية استقلال الذات العارفة عن موضوع المعرفة.

وما تحيل عليه فيما يتعلق بالتفسير العلمي للإنسان من حيث العمومية، والتفسير الخاص بالفرد ، ولفحص هذه الإشكالية تطورت طرق البحث والتقصي من التأمل والاستبطان إلى طرق الاشتغال الحديثة من امبريقية واستكشافية، هذه التي سمحت بتوفير إطار منهجي لعلم النفس يلتزم بشروط العلم الموضوعية ، وعليه فإن علم النفس يبقى أنه علم وعلم إنساني بامتياز، وقد تحقق هذا الوضع بفعل عدة تفاعلات معرفية وثقافية وفكرية عرفها علم النفس تاريخيا عبر مراحل نشأته وتطوره، وخاصة بصورة مكثفة إلى حد ما خلال القرن التاسع عشر.

إذن من الأكيد أن واقع الشروط التي قام عليها علم النفس منذ بداياته وإلى أواسط القرن العشرين، جعل منه المجال المعرفي الأكثر عرضة للجدال فيه من جانب الإبستمولوجيا ومناهج العلوم ، بالإضافة إلى جملة من مواقف النقد والاعتراض والمقاومة التي نشطت من خلال مجالات فكرية وعلمية متنوعة ، إذن فيما يخص تصنيفات العلوم فقد كانت لها أهمية

خاصة بالنسبة لعلم النفس ، ذلك أن هذا الأخير بكونه سعى إلى أن يتأسس كعلم مستقل وإعادة ترتيب علاقاته بالفلسفة وبالعلوم الطبيعية والاجتماعية، فإنه عمل على إبراز كيفية اندماجه في النسق العام للعلوم، وكان هذا الإجراء أحد أهم الخطوات بالنسبة لعلم النفس لكي يثبت ويؤكد هويته العلمية من ناحية، والإطار الذي يعكس مهامه داخل حقل المعرفة من ناحية ثانية ، وتبقى على سبيل المثال أعمال جان بياجى الأهم في تنمية هذا التطور .

و في دراسات علم النفس نجد أقرب المدارس إلى الدراسة العلمية هي :

المدرسة السلوكية بزعامة وطسن، هذه المدرسة عملت على دراسة الظاهرة النفسية دراسة موضوعية، إذ ترى أن الظاهرة النفسية يمكن ملاحظتها، وذلك بملاحظة آثارها التي تتمثل في السلوك الذي يعتبر مرآة عاكسة للحياة النفسية الداخلية، ويرى وطسن أن سلوك الإنسان ينحل إلى (منبه و)استجابة .) فكل سلوكيات الإنسان تجري على هذا الشكل، ويكفي فقط أن تحدث منبهات وتلاحظ الاستجابة، ومن خلالها ترى الظاهرة النفسية مجسدة في طريقة الاستجابة، والينبوع الأول الذي استقى منه واطسن أفكاره هو الدراسات التي قام بها العالم الروسي بافلوف، كان بافلوف يريد قياس كمية اللعاب التي يفرزها الكلب عند تناول الطعام، ولذلك ثبت كلبا في مكان معين و أوصل إحدى غدده اللعابية بأنبوب، وقد الحظ أثناء تجربته هذه أن الكلب لا يفرز اللعاب فقط عندما يكون الطعام في فمه، وإنما يبدأ الإفراز بمجرد ما يرى طبق الأكل، فإفرازا للعباب عند رؤية الخادم أو سماع وقع الأقدام هو فعل ابستيمولوجيا العلوم الإنسانية والاجتماعية مكتسب تولد في ظل الشروط التي كانت تسبق عملية الأكل، وقد سمى بافلوف هذا العمل الجديد بالمنعكس الشرطي، وقد أعجب واطسن بهذه التجربة فأخذ يشرح على غرارها ما يوجد في سلوك الإنسان من تعقيد، فأنواع السلوك الذي نواجه به مؤثرات البيئة ليست سوى منعكسات شرطية اكتسبت بالتجربة.

ولنأخذ الانفعالات يرجعها واطسن إلى ثلاثة انفعالات وهي الغضب الذي ينشأ عن تضيق الحرية، والحب الذي ينشأ عن الرتب والمداعبة، والخوف: ينشأ عن استجابة لمؤثر خارجي كحدوث أصوات مرتفعة.

و هناك المنهج التحليلي أو التحليل النفسي: وهو طريقة علمية في تحليل الظواهر النفسية والاضطرابات العقلية أبدعها العالم النفساني سيغموند فرويد كبديل للتتويم المغناطيسي ويقوم التحليل النفس ي على الحوار والتداعي الحر للأفكار من خلال الأسئلة التي يلقيها الطبيب على المريض أو السوي، وتتعلق أساسا بماضيه وأحلامه ورغباته وميوله والغرض من ذلك هو إخراج الرغبات المكبوتة في اللاشعور إلى ساحة الشعور حتى تزول العقد وتختفي الأعراض المرضية يقول فرويد: إن اللاشعور فرضية لازمة ومشروعة لتفسير الكثير من الأفعال التي لا تتمتع بشهادة الشعور، سواء عند الأسوياء أم المرضى على حد سواء.